رجال من معارك الإسلام

تأليف

محمد شديد

أول مَن لُقِبَ بأمِير المؤمِنين

جَعفَر بن أبي طالِب

مؤسسة الرسالة

أول من لُقِّب بأمير المؤمنين

جَعفر بن أبي طالب

ابنُ عمّ النبي- صلى الله عليه وسلم- وأخو عليّ بن أبي طالب، ويكبره بعشر سنين، أي: أنه أسلم وكان سنُّه دون العشرين، ومما رُوي عن صفاته، أنه كان أشبه الناس برسول اللهِ صلى الله عليه وسلم، خَلْقاً وخُلقاً، كما أُطلق عليه: جعفرٌ الطيارُ، بعد أن استشهد في معركة مؤتة، وهو أول من سُمّي في الإسلام بأمير المؤمنين، إذ كان أميراً لمهاجري الحبشة، وكان النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- يقول عنه: «جعفر أبو المساكين» لحبه لهم وحبهم له، يحدثهم ويحدثونه، ويأنس لهم ويأنسون له، ويبرّهم ويعطف عليهم.

وجعفرٌ أحدُ شباب قريشٍ الذين سبقوا إلى الإسلام، وقد أعدهم الله تعالى لدعوته، واختارهم لرسالته، واصطفاهم ليكونوا أول المؤمنين والمجاهدين في سبيله، وكأنهم كانوا مع دعوة الله على ميعاد.

هذه المجموعة من الشباب- الذين آمنوا في العهد المكي، كانوا هم الصفوة من أهل مكةَ، وقد جمعوا بين حب الحق

هذه المجموعة من الشباب المؤمن، التقطهم النبي - صلى الله عليه وسلم - من مجتمع جاهلي، فصاغ نفوسهم صياغةً جديدةً، ونقلهم نقلةً هائلةً من الجاهلية إلى الإسلام: عقيدةً وفكراً، وخُلُقاً وسلوكاً. وهم دليل واضح على مدى ما يمكن أن يصنعه الإيمان بالنفس، وعلى مدى قوة النفس بالإيمان.

ولئن كان شباب العالم الحديث، يعاني كثيراً من الضياع والضلال، فلأنه فقد العقيدة الحقة، والمنهج السليم، والتربية الصالحة، والقدوة الحسنة، ولن يجد سبيله إلى ذلك إلا في سيرة الرعيل المؤمن الأول، في أولئك الشباب الذين خرَّجتهم مدرسة النبوَّة.

* * *

مرَّت الحركة الإسلامية الأولى بمرحلتين، أو عهدين: العهد المكي، والعهد المدني، يفصل بينهما الهجرة من مكة إلى المدينة، حيث تكوَّن المجتمع، وأقيمت الدولة الإسلامية الأولى، ولكل من العهدين، ظروفه، وسماته، وخصائصه، وخطة حركته، وقرآنه الذي أُنزل فيه.

والعهد المكي كان عهد دعوة وتربية، وكان الإيمان هو أساس الدعوة والتربية، وهو المصنع الذي صيغت فيه تلك

النفوس المؤمنة، التي حققت في واقع الحياة أروع الأعمال، وأعظم المثل في الإيمان، والتجرد لله، وحمل أمانة الدعوة، والتضحية بكل ما يحرص عليه الناس من أعراض الحياة.

والإيمان ليس مجرد شهادة ينطق بها اللسان، ولا مجرد فكرة يحتويها الوجدان، إنما الإيمان منهج حياة عميق الأثر في النفس، له آثاره على العقل والضمير والسلوك، الإيمان بالله الواحد:

لم يكن حل مسألة، ولم يكن سرٌ أحبارٍ وحكماء، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد، بل كان خالق الكون والناس، وحاكم الكون والناس، وكان منه الأمر والنهي، وإليه المرجع والمآب، كانت عبادته مسألةً حيةً، تمتزج بسرائر النفس، وينبعث منها فضائل الخير، ولا تنزوي عنها زاوية في الكون، ولا في ضمير الإنسان، كانت دعوته صرخةً تُسمع وتتجاوب بها الآفاق، ولم تكن لغزاً- يخفى، وتتحاجى به العقول، كانت صحبة البيت والطريق، وصحبة اليقظة والمنام، وصحبة العزلة والجماعة، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت، ولم تزل حتى أصبحت وهي صحبة الخلود الذي لا يعرف الفناء[1]».

«لم يكن في العهد المكي، إلا الإيمان وتربية المؤمنين على الصبر والثبات في مواجهة متاعب الطريق، فلم ينزل القرآن

(١) كتاب «أبو الأنبياء» عباس محمود العقاد.

بكف أيديهم عن دفع عدوان المشركين، والصبر والاحتساب والمغفرة، حتى يأتي نصر الله، وبهذا خلص العهد كله للدعوة والتربية، لإعداد جيل مسلم جديد، تتمثل فيه مبادىء وخلق الإسلام، ليكون هذا الجيل المسلم الجديد هو الأساس المؤمن القوي، لبناء المجتمع المسلم الجديد حين يقوم.

وهو منهج فريد في بناء الدول وتكوين المجتمعات، حيث يُحتّم هذا المنهج، ان يسبق هذا البناء، وهذا التكوين، إعدادٌ كاملٌ للقاعدة المؤمنة، وتربية هادئة مستأنية للأساس المؤمن للمجتمع والدولة، أي أنه بلغة العصر إعداد للكوادر، التي سوف تحمل مسؤولية القيادة والحكم، قبل أن يشرع في تكوين المجتمع وإقامة الدولة.

وكم فشلت ثورات على مدى التاريخ الإنساني في تحقيق أهدافها، ولجأت إلى العنف، وسفك الدماء، ومصادرة الحريات، لفرض مبادئها بالقوة، لأنها لم تعد أولاً القاعدة المؤمنة بتلك المبادىء، بل إن كثيراً من الحركات الإسلامية، قد فشلت بدورها، لأنها ابتدعت وسائل وأساليب، بعيدة عن المنهج النبوي الشريف.

* * *

جعفرُ بن أبي طالب، أحد نماذج الشباب المؤمن الذي تخرج في مدرسة النبوّة في العهد المكي، وقد اختاره النبي صلى الله عليه وسلم ليكون أميرَ المهاجرين إلى الحبشة، في أواسط العهد المكي، فقام بواجبه خير قيام، فكان نعم المسؤول عن إخوانه المؤمنين في الحبشة، وكان نعم السفير لدعوته، ونعم الداعية لها، حيث أسلم على يديه ملكُ الحبشة، وطائفةٌ من رجاله.

وهجرة الحبشة لم تلق من كتب السيرة ما تستحق من دراسة وتحليل، فهل كانت هذه الهجرة لمجرد الفرار من أذى قريش، وتعذيبها للمؤمنين؟ أم كان لها أهداف أخرى غير هدف نجاة المؤمنين من الاضطهاد؟

ولماذا وقع اختيار النبي- صلى الله عليه وسلم- على الحبشة بالذات، لتكون دار هجرةٍ لأصحابه، وهل بعث بهم إليها دون إعداد واتفاق مع دولتها على قبولهم وترتيب إقامتهم بها؟

والمعروف أن الهجرة إلى الحبشة حدثت مرتين، المرة الأولى كانت من عدد قليل، ولم تمكث في الحبشة إلا شهراً واحداً، أو أقل من شهر، وكان على رأسها عثمان بن عفان، وزوجه بنت النبي- صلى الله عليه وسلم-، فهل كانت عودة هذه الدفعة من المهاجرين، للسبب الذي ذكرته كتب السيرة. ولفق البعض منها حوله بعض الشبهات المنكرة،

الله عليه وسلم- إلى الحبشة للإعداد هجرة المؤمنين، وتامين معيشتهم في الحبشة؟

فإذا كانت هجرة الحبشة بسبب اضطهاد قريش، وتعذيبهم للمؤمنين، أي بهدف النجاة من المحنة، فلماذا اقتصرت هجرة الحبشة على عدد من الاقوياء ذوي العصبية، دون المستضعفين من المؤمنين، فلو صح ما ذهبت إليه كتب السيرة من أن الهجرة كانت فراراً من الأذى، لكان الأولى بالهجرة أولئك المستضعفون، الذين تعرضوا للفتنة، دون الأقوياء ذوي العصبية.

ثم لماذا هاجر أبو موسى الأشعري من اليمن، ومعه نحو خمسين من مسلمي اليمن، ولحقوا بجعفر وإخوانه بالحبشة، ولم يثبت أن مسلمي اليمن قد تعرضوا لتعذيب أو إضطهاد؟

وهنا حقيقة أخرى تؤكد أن هجرة الحبشة كانت لأسباب أخرى، غير الفرار من المحنة، وهي أن المهاجرين بَقَوْا في الحبشة، حتى بعد الهجرة العامة إلى المدينة، وتكوين المجتمع، وإقامة الدولة، حيث عز المسلمون، وأصبحت الدولة للإسلام، فلماذا لم يعد المهاجرون من الحبشة إلى المدينة، بمجرد نقل مركز الدعوة إليها إذا كان سبب هجرتهم إلى الحبشة، هو الفرار من التعذيب، وقد زال هذا السبب بعد أن قامت دولة الإسلام في المدينة؟

هذه بعض التساؤلات التي تتعلق بهجرة الحبشة، وهي كلها في حاجة إلى دراسة وتمحيص وتحليل.

والذي تطمئن إليه النفس، ويتفق مع حكمة النبي- صلى الله عليه وسلم-، وبُعد نظره، وتخطيطه، وإعداده لحركة المؤمنين، كما يتفق مع دراسة السيرة كحركة معدة المراحل والخطوات، لم تخضع هذه الحركة قط للارتجال او المصادفة. أقول: إن الذي تطمئن إليه النفس، هو أن من بين أهداف النبي- صلى الله عليه وسلم- بهذه الهجرة هو تأمين مجموعة من المؤمنين بنقلهم إلى مكان آمن، بعيداً عن مركز الصراع في مكة والمدينة، بحيث تكون هذه المجموعة المؤمنة، رصيداً مدَّخراً للحركة الإسلامية، قد تضطر ظروف الدعوة إلى الحاجة إليهم في وقت من الأوقات، ولذلك أبقاهم- صلى الله عليه وسلم- في الحبشة، حتى وضعت الحربُ أوزارها مع مشركي قريش بعد هدنة الحديبية، وبعد القضاء على يهود المدينة وبعد فتح خيبر.

ثم هناك أمر آخر- لعله كان من بين أهداف هذه الهجرة- هو أن هجرة الحبشة قد أحدثت في المجتمع المكي هزةً عنيفةً، فلم يكن بالسهل ولا باليسير على زعماء الشرك- في مثل هذا المجتمع القبلي-، أن يَروْا أبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأبناء وبنات عمومتهم، يخرجون من مكة مهاجرين.

لعمر بن الخطاب قبل إسلامه، فقد رُوِيَ أن ليلى، زوجة عامر بن ربيعة، قالت:

كان عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبت بعيري، أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة، وقد ذهب زوجي أبو عبد الله لبعض حاجته، إذا أنا بعمر بن الخطاب قد أقبل، وكنا نتقي منه الأذى والبلاء والشدة، فقال: إنه لخروج يا أم عبدالله! فقلت: والله لنخرجن، فقد آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجاً ومخرجاً.. فقال: صحبكم الله. ورأيت منه رقةً لم أكن أرها ثم انصرف، وتفرست فيه حزناً لخروجنا.. فلما عاد زوجي عامر، أخبرته بما رأيت من رقة عمر، وحزنه لخروجنا. فقال: ترجين أن يسلم عمر! والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب- استبعاداً لما كان يرى من قسوته وشدته على أهل الإسلام- ولكن ما لبث عمرُ أن أسلم بعد ذلك بقليل.

نعود الى وقائع الهجرة:

خرج من مكة إلى الحبشة من المؤمنين ثلاثةٌ وثمانون رجلاً وثماني عشرة إمرأة، أميرهم جعفر، وبعد أن وصلوا إلى الحبشة، لحق بهم من اليمن أبو موسى الأشعري، ومعه

خمسين من مسلمي اليمن فانضموا إلى إخوانهم تحت قيادة جعفر، فاقاموا بخير دار عند خير جار.

بعثت قريش بسفيرين إلى ملك الحبشة. هما عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد، ومعهما الهدايا للنجاشي ورجاله، ليردَّ المهاجرين إلى مكة. فلما قابل السفيران النجاشيَّ، قالا له إن نفرا من بني عمنا نزلوا بأرضك، فرغبوا عنا وعن آلهتنا، ولم يدخلوا في دينك، وقد بَعَثنا إلى الملك أشرافُ قريش، لتردوهم إليها.. فقال النجاشي. حتى أبعث إليهم وأسألهم عن دينهم. فقال عمرو: إنهم يقولون في عيسى غير ما تقولون. ولا يحيونك بتحيتك.

وجاء جعفر لمجلس النجاشي، ومعه عدد من المهاجرين، فلما دخلوا عليه لم يركعوا له- وكانت تلك هي تحيته-، فقال النجاشي: ما لكم لم تحيوني بتحيتي؟ قال جعفر: لقد حيَّيْناك بتحية أهل الجنة، ونحن لا نركع إلا لله. فقال الملك: فما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني، ولا دين أحد من هذه الملل؟

فقال جعفر: أيها الملك. كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل المَيْتَةَ، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف. فبعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف صدقه وعفافه وأمانته، فدعانا الى الله تعالى لنُوَحِّدَه، ونخلع ما كنا نعبد من الحجارة والأوثان.

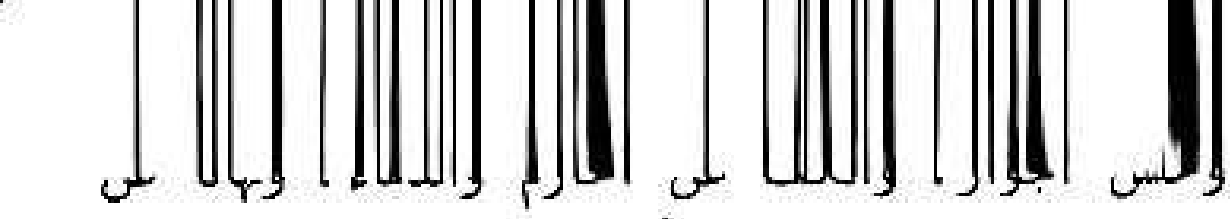

وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.. وأمرنا بالصلاة، والزكاة، فصدقناه، وآمنا به، وأتبعناه على ما جاء به من عند الله. فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا في ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورَغِبْنا في جوارك، ورَجَوْنا ألاَّ نُظْلَم عندك.

قال النجاشي:

هل معك مما جاء به من عند الله شيء؟

فتلا عليه جعفرٌ بعضَ آيات القرآن الكريم.

قال النجاشي:

فما تقولون في عيسى عليه السلام؟

قال جعفر: نقول فيه ما قاله الله عز وجل.. وتلا عليه آياتٍ من سورة مريم.

وكان النجاشي متبحراً في المسيحية ومن علمائها. ومن الطائفة التي تؤمن بأن عيسى عليه السلام بشرٌ، وأنه رسولُ الله، فلما سمع ما تلاه جعفر من سورة مريم، بكى، وقال: إن هذا والذي جاء به عيسى، ليَخْرُج من مشكاةٍ واحدةٍ.

وأعلن النجاشي حمايته للمؤمنين المهاجرين، ورد سفيري قريش رداً عنيفاً، وأعاد إليهما هدايا قريش.

وبقي جعفر بعد ذلك سنوات طويلة، نحو أربعة عشر عاماً، مع المهاجرين بالحبشة، أميراً لهم، يرعى شؤونهم، ويصلي بهم، ويُقرئُهم القرآن، ولقد كان طوال هذه المدة نعم الأمير للمؤمنين، ونعم الداعية إلى دينه، ونعم الممثل لدعوته، فآمن على يديه النجاشي، ودخل الإسلام كثير من أساقفته ورجاله، وذهب منهم وفد الى مكة، فقابلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وسمعوا منه آيات من القرآن الكريم، وأنزل الله عز وجل فيهم قرآناً.

روى ابن إسحق، والحافظ ابن كثير، في تفسيره، ما ملخصه: أن وفداً من نصارى الحبشة - نحو عشرين رجلاً - جاء الى مكة وقابلوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فدعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم سورة ﴿يس﴾، فبكوا وأسلموا، فلما قاموا اعترضهم نفر من مشركي قريش، وقالوا لهم: خيبكم الله من ركب، بعثكم قومكم لترتادوا أمر الرجل، فما لبثتم أن فارقتم دينكم وأسلمتم، ما نرى أجهل منكم.. فقالوا: سلام عليكم لا نجاهلكم... فأنزل الله تعالى فيهم قوله عز وجل:

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ

مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ
وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى
ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ (١)

أما النجاشي ملك الحبشة، فالثابت أنه قد أسلم، فقد رَوَتْ كتب السيرة، أن الحبشة أعلنت الثورة عليه لما علمت بإسلامه، ولكنه انتصر عليهم، كما أن الثابت أنه كان وكيل النبي- صلى الله عليه وسلم- في زواجه أم حبيبة، إحدى مهاجرات الحبشة رضي الله عنها، وأن النبي- صلى الله عليه وسلم- صلى عليه صلاة الغائب في المدينة، لما علم بوفاته.

* * *

وبعد صلح الحديبية وفتح خيبر، حضر جعفر ومعه المهاجرون الى المدينة، عائدين من الحبشة، فقال النبي- صلى الله عليه وسلم-: ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر.

---

(١) سورة القصص (٥٢- ٥٥)

وبعد ذلك بعام، أي في السنة الثامنة من الهجرة، اختاره النبي صلى الله عليه وسلم، قائداً للجيش الذي بَعث به لحرب الروم، وهو جيش مؤتة، وكان هو ثاني قادة هذا الجيش، زيد بن حارثة، ثم جعفر ثم عبدالله بن رواحة، ودارت معركة مؤتة، وليس فيها تعادل بين الفريقين. ثلاثة آلاف من المسلمين يقاتلون مِئَتي ألف من الروم، فلما علم المسلمون بكثرة عدد الروم، أقاموا ليلتين ينظرون في أمرهم، هلْ يبْعثُون لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- يخبرونه بعدد عدوِّهم، فإما أن يمدهم برجال، أو يأمرهم بأمرٍ فيمضوا إليه، فقال عبدُالله بن رواحة- أحدُ قوَّاد الجيش:

- يا قوم، والله إن الذي تكرهون لَهُوَ الذي خرجتم إليه- لقد خرجتُم تطلبُون الشهادة، ونحنُ ما نقاتلُ الناس بعددٍ ولا قوةٍ ولا كثرةٍ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي اكرمنا الله تعالى به.. إنما هي إحدى الحسنيين إما نصرٌ وإما شهادة..

فقال الناسُ: صدق والله ابن رواحة، ومضوا للقتال.

وقد استُشْهِدَ جعفر في هذه المعركة، بعد أن فقد ذراعيه، وقد قال النبيُّ- صلى الله عليه وسلم- فيه: إن الله أبدل جعفراً بيديه، جناحين يطيرُ بهما في الجنة حيثُ يشاءُ.

ورُوِيَ عن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما-، أنه عرَضَ عليه الماء قبل أن يموت، فقال له جعفرُ: إني صائم،

سنةً.

ودعا النبي- صلى الله عليه وسلم- لجعفر فقال: اللهم قدمه إلى أحسن الثواب، وأخلفه في ذريته بأحسن ما خلفت أحداً من عبادك في ذريته.. وذهب الى بيته وحمل ابنه عبدالله، وقال له: هنيئاً لك، أبوك يطيرُ مع الملائكة في السماء. ودعا له فقال: اللهمّ بارك له في صفقة يمينه.. قال عبدالله: فما بعتُ شيئاً، ولا اشتريت شيئاً، إلا بُورِكَ لي فيه.

ورُوِيَ في الصحيح، عن أبي هريرة أنه قال: ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا، ولا وَطِيءَ الترابَ بعد رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أفضل من جعفر بن أبي طالب.

قال عمر بن الخطاب لأسماء بنت عميس، زوج جعفر بعد عودتهم من الحبشة: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسولِ اللهِ- صلى الله عليه وسلم- فقالت كلاَّ والله، كنتم مع النبي- صلى الله عليه وسلم- يُطْعِم جائعكم، ويَعِظُ جاهلكم وكنا في دار الغرباء في الحبشة. وذهبت، فقالت ذلك للنبي- صلى الله عليه وسلم- فقال: ليس بأحق بي منكم، له ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم هجرتان، هاجرتم إلى النجاشي وهاجرتم إلي.

وهناك ظاهرةٌ واضحةٌ في حياة الرعيل المؤمن الأول، وهي الزواجُ من نساءِ الشهداءِ وكفالةِ أولادهم، وكانت هذه الظاهرة إحدى دعائم التكافل في المجتمع المسلم، لذلك تزوج ابو بكر الصديق رضي الله عنه من أسماءَ بنت عميس، زوجة جعفر بن أبي طالب- رضي الله عنه- بعد استشهاده، فلما مات أبو بكر تزوجها عليٌّ بن أبي طالب.. وحدث أن تفاخر ابناها محمدُ بن أبي بكر، وعبدُالله بن جعفر، فقال كل واحد منهما: أبي خير من أبيك.. فقال علي لأسماءَ: أقضي بينهما.. فقالت لابن جعفر: أما أنت يا بني، فما رأيت شاباً من العرب كان خيراً من أبيك.. وقالت لمحمد بن أبي بكر: وأما أنت يا بني، فما رأيت كهلاً من العرب خيراً من أبيك.

فقال لها عليٌّ: ما تركت لنا شيئاً.. ولو قلت غير هذا لَمَقَتُّكَ.

فقالت: والله إن ثلاثة أنت أحسهم لأخيار.

رضي الله عنهم أجمعين.

* * *